منابر شاغرة وأحشاء ثائرة

قراءة في الواقع الثقافي العربي

لم يكن معيار انتخابنا لعنوان هذا المقال يُرد إلى الجرس اللغوي أو المفارقة في المعنى بقدر ما تدل كلماته عن الواقع المعيش، فكل الواقعات والأحداث تشهد بأن منابرنا التي ينبغي أن يعتليها قادة الفكر وزعماء الإصلاح - الذين اعتدناهم يضطلعون لتربية الرأي العام وتوعية الجمهور وتقييم الماضي ونقد الحاضر و إصلاحه وتغييره ورسم الخطى للمستقبل غائبين - نعم تلك المنابر شاغرة من أصحابها ومن عبث الأقدار نجد الأصاغر والأسافل يتسلقونها اغتصابا.

الأمر الذي أدى إلى ثورة الأحشاء والمقصود بالأحشاء هو كل المعاني الصرفية المصاحبة ل اللفظ بداية من البطون الجائعة والمشاعر المتأججة والعقول المتخبطة المرتابة في كل شيء ونهاية بنفوذ الصبر وامتلاء الكيل ضجرا.

ولما كانت غايتنا هي قراءة الواقع بنظرة ما بعد حداثية أو إن شئت قل نقدية تقويمية فلزاما علينا تقديم الوصف والإفصاح عن العلل وتأخير النقدات والرؤى، وبالطبع لن نستطيع الحديث عن كل المنابر الشاغرة لذا سوف ننتخب أكثرها تأثيرا في بنيتنا الثقافية وأعظمها خطرا في حياتنا والتخطيط لمستقبلنا.

صلاة جامعة بلا إمام وجمعة بلا خطيب

يرى راشد الغنوشي وطه جابر العلواني[1] أن أزمة الخطاب الإسلامي تبدو بوضوح في عجز منابره عن توضيح أصوله وضوابطه ومقاصده وجميعها لم يحاول مناقشة الأسباب التي حالت بينه وبلوغ مآربه أعني حل المشاكل التي تمكن الإنسان من العيش أمنا ومطمئنا وسعيدا في الدنيا ومثابا في الآخرة، ويلخص الغنوشي الإشكاليات التي كان ينبغي على أصحاب المنابر **طرحها ونقدها في:**

أولها: الشتات والتفكيك أي استحالة الخطاب الإسلامي من كونه لسانا لدعوة أمة إلى انقسامه في دائرة القطرية والمحلية وانحصر بذلك في أهواء الدوائر السياسية المتعارضة بل المتصارعة فبات الخطاب الإسلامي مفعما بكل الآفات التي تحول بينه والتعبير عن العالمية والقيم المتسانحة التي تجمع ولا تفرق وتسعى لتحقيق الإخوة الإسلامية ذلك فضلا عن قضائه تماما على غاية الوحدة الإسلامية التي حث عليها الشارع وباتت ضرورة لمعالجة الواقع المعيش.

وثانيها: إهمال أصحاب المنابر للجانب التربوي والقيمي من الخطاب أي تلك المبادئ الخلقية التي عالجها القرآن وصحيح السنة في أكثر من سبعين في المائة من نصوصه، فالعدالة والحرية والكرامة ومكافحة الاستبداد في شتى صوره وإفشاء روح المحبة عوضا عن الصراع والكراهية والعنف

(1)) طه جابر العلواني: (أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر) - مقال في جريدة الدستور، 19 يونيو 2009.

كلهـا من القيم التي أهملها أرباب المنابـر وراحوا ينفقون الجهد في الحديث عن الخلافات العقدية التي تقسم الناس إلى كفرة ومشركين وبدعيين وفساق ومؤمنين وناجين،

ويعنون جـد عنايتهم بالأمور الشـكلية دون الجوهرية بداية من فرض الحجاب وإغلاق دور السينما فور توليهم السلطة.

ويضيف طه جابر العلواني أن إسـهاب أصحـاب المنابر في الحديث عن أمجاد الماضي أو تحويلاتها لمواطن الخلاف بين الفقهاء حول الأمور الهامشية أو إعادة طرح قضية الأصالة والمعاصرة ونظرية المؤامرة واسـتبداد الحكام وتكفير النظم لن يحقق مقاصد الشرع.

ويقـول في ذلـك «فالمكـذّب بالدّين ليس هـو من لا يؤمن باللـه واليوم الآخـر كما هو التعريف العقدي الكلامـي، وإنّما هو أيضا من يحتقر اليتيم ولا يبالي بالمسكين ويمتنع عن بذل العون للمحتاج، فلا تنفعه إذن صلاة يرائي بها خلاصة ذلك أنّ الإيمان لا يرد في القرآن إلاّ مقترنا بالعمل الصالح، وكذلك الأمر في عموم السنّة».

غير أن الغنوشي يختتم حديثه ببعض الإيماءات والتلميحات إلى أن خلاص الأمة في عودة الخلافة الإسلامية متماسكة على النهج الذي سلكه أبو بكر في حروب الردة ثم تطبيق الشريعة الإسـلامية في ميدان السياسـة حتى يتحرر الإسلام من النظم العلمانية المغايرة والمعادية للأمة الإسلامية.[1]

في حين نجد طه جابر العلواني يحدد معوقات الخطاب الإسـلامي في عدم

(1) راشد الغنوشي: مشكلات الخطاب الاسلامي - الجزيرة نت، الأحد 31/ 10/ 2010

قدرته على الفصل بين الثابت الشرعي والمتحول الفقهي أي بين الوحي الإلهي والفكر الإنساني والخلط بين المذهب والمنهج في العلم والفلسفة، فالمنهج العلمي ليس له دين أو وطن وكذا النهج العقلي لا ينتمي إلى فلسفة بعينها أو ينحصر في نظرية ما وعليه فلا حرج على المسلم الأخذ بالمنهج باعتباره حكمة علمية أو عقلية يمكن تطويعها والاستفادة منها بغض النظر عن مصدرها، أما إبتضاع النظريات والنظم السياسية والاقتصادية وغرسها في المجتمع الإسلامي فهذا لا يجوز شرعا وعقلا فالإسلام له وجهته ومقاصده في معالجة أمور الواقع ومن ثم لا يمكن معالجتها برؤى مغايرة ونظريات مختلفة عن البنية الإسلامية (ولكل عقيدة تصورها للكون والحياة والإنسان، ولكل معرفة منطلقاتها وأهدافها. واستعارة معرفة من ثقافة أخرى، كتعليق الثمار على أشجارها، فلا يمكن للأشجار أن تروي الثمار، ولا للثمار أن تتنفس من خلال الأشجار). و إذا نظرنا إلى مضمون هذين الخطابين سوف نجدهما لا يأتيان بجديد عما اضطلع به رواد النهضة الإسلامية في أخريات القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين فالأفكار المطروحة والمشكلات المراد مناقشتها طالما تساجل حولها المحافظون والمجددون والمفكرون الليبراليون منذ حسن العطار حتى محمد عمارة، الأمر الذي يقطع بأن منبر الخطاب الإسلامي شاغر من المجددين ولعل الوقائع التي حدثت عقب ذيوع هذا الخطاب الذي تناقلته عشرات الدوائر الثقافية خير دليل على سقوطه وزيف مقاصده وقد قدم الإخوان المسلمون والجماعات الإرهابية البراهين الدامغة على أن الخطاب الإسلامي المعاصر لم يفلح في ما كان يدعو له من شعارات فلم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر ولم يهد المتشككين ولم يرغب الأغيار في الإسلام بل النقيض تماما ما زال يحدث

فانتشرت الجماعات الإلحادية ولم يخرج الإسلام من قفص الاتهام وراح أعلام المتأسلمين يبررون جرائم داعش و يطلقون عليها ثورة إسلامية وجهادا شرعيا وذلك على حد تعبير يوسف القرضاوي ومن صار في ركابه من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين وجماعة الجهاد والجماعة الإسلامية أولئك الذين أباحوا دماء المصريين والليبيين والسوريين والعراقيين باسم الشريعة الإسلامية، في حين نجد الدوائر الغربية ترصد ذلك كله فتطلق العنان لجمعيات حقوق الإنسان الماسونية لتشجيع الخلايا العلمانية الإلحادية والفوضويين ومثيري الشغب من جهة وتدعم في الوقت نفسه المتعصبين من أفراد جماعة الإخوان والسلفيين لإسقاط النظام في مصر وتهييج العوام وافتعال الأزمات بين الجمهور والشرطة والجيش تارة والأقباط والشيعة تارة أخرى. فهل كل ذلك لا يكفي لثورة الأحشاء وكمادها ؟

وتحدثنا الباحثة آمال كمال طه عن حال الخطاب الديني في الصحف العربية والغربية فتؤكد أن منابر الخطاب الديني في عام 2013، 2014 م لم تختلف عن سابقتها من حيث كونها خطابات إنشائية مغرقة في النظرية كما أنها تبدو الأسوأ من سابقتها وذلك لأنها تأجج الصراع الطائفي والمذهبي وتعطي مشروعية للحركات الجانحة والإرهاب المسلح ذلك فضلا عن جهل الخطباء وسطحية طرحهم ومعالجتهم للقضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية، أضف إلى ذلك كله العباءات الأيدلوجية التي تطل من بين سطور الخطابات (سلفي - ليبرالي - وهابي - إخواني - مأجور - مناصر للسلطة)[1].

(1) آمال كمال طه: اتجاهات خطاب الصحافة العربية نحو قضية تجديد الخطاب الدينى، المركز العربي للبحوث والدراسات 29 يوليو 2015.

أما الخطاب الأزهري فمازال مشغولا بتحديد معاني المصطلحات وصياغة البيانات وتحرير التصريحات حتى لا يقع في المحظور فها هو المنبر الأزهري يدافع عن نفسه مصرحا بأن شيوخه مازالوا يجتمعون لوضع الحدود الفاصلة بين مصطلحي التجدد والتبديد ويخلصون مضمون الخطاب من الرؤى السلفية والإخوانية والعلمانية.[1]

والحق أن الأزهريين لم يفلحوا بعد في إصلاح مناهجهم وطرائق تدريسهم ولم يتحرروا من قيد وسلطة وسيطرة بعض الجماعات التي تسللت إلى هيئة التدريس في المعاهد الأزهرية بل وفي الجامعة وفي كليات الدعوة وأقسام العقيدة والفلسفة والشريعة والتفسير وكلها منوطة بتجديد الخطاب الديني. الأمر الذي يدفعنا إلى أن نصرح بأن منبر الخطاب الديني مازال شاغرا و ينقصه العمد التي تحميه وترفعه وتؤكد وجوده وأولها تحديد مقاصد الخطاب على نحو يجمع بين الدعوة القيمية ومعالجة قضايا الواقع المعيش، وثانيها تحديث لغة الخطاب، وثالثها تمكين أصحاب المنابر من فن التساهل وذلك للرد على الأغيار بالحجة والبرهان عوضا عن القدح والشتم والتشكيك في عقيدة المختلف، ورابعها وضع خطة مستقبلية للحيلولة بين الجماعات المتطرفة وظهورها ثانية في المجتمع الإسلامي. فأحشاء الأمة ثائرة بحق لأنها امتلأت بطعوم فاسدة فتقيأتها وهي الآن خاوية تشكو قلة الزاد الذي يملأ أرواحها وعقولها و يقوم أخلاقها ويحيي ضمائرها.

(1) حسام الحداد: الأزهر وتجديد الخطاب الديني، ميدل ايست أونلاين - 17/ 6/ 2016.

الاعتراض غاية والقضية مختلقة والحلول والبدائل عشوائية

إذا ما انتقلنا إلى منبر العلمانيين فلم نجده أفضل حالا من سابقه فعلى الرغم من تزاحم الخطباء من حوله فلم يفلح أحدهم في اعتلاءه و إقناع الجمهور بحديثه الذي طالما تشدق بأنه لا يعوقه عن الانطلاق والإصلاح و إنقاذ المجتمع من ما هو فيه إلا استبداد السلطة دينية كانت أو سياسية. فها هو تيار المثقفين لا نكاد نرى من بينهم من يقدم مشروعا لإعادة تربية الرأي العام والحد من ظاهرة العنف التي باتت واقعا في كتاباتنا ومناقشاتنا وأحاديثنا بل وفي أفلامنا وأغانينا ذلك فضلا عن مرافقنا العامة ومدارسنا وجامعاتنا، أضف إلى ذلك عطب الأخلاق والأذواق وتفشي الفساد وتقدم الأدعياء وتعملق الأقزام ناهيك عن الترويج للشائعات وثقافة الخرافة والسحر والشعوذة والهابط مما نعتبره فنا وبث الشعور باليأس والإحباط في المجتمع وذلك كله في أجهزة الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية وعلى شبكات التواصل الاجتماعي التي لم تصبح أداة للتثقيف والتوعية والتنوير بل سلاح خطير لتزييف الوعي ونشر الأكاذيب والتحريض على الفوضى.

و إذا ما استعرضنا الخطاب السياسي العلماني فسوف نجده يصارع ما يطلق عليه الثيوقراطية أو السياسة الشرعية محاولا إثبات أن المدنية لن تتحقق إلا بمسايرة السياسة الأمريكية تارة أو الاشتراكيين أو مجابهة السلطات التقليدية المتمثلة في الحكومات الملكية أو العسكرية تارة أخرى، والقليل من المنظرين للسياسة يعكفون على البحث عن صيغ معاصرة شاغلة بالمصطلحات البراقة لجذب الشباب للانضمام للحركات والائتلافات أو للأحزاب الهيكلية التي يدعون أنها لها وجود على الأرض، ومعظم المشتغلين

في الشارع السياسي العربي عاجزين تماما عن إيجاد خطط أو مشروعات بديلة عما هو مطروح من خلال الحكومات القائمة ويكتفون من حين إلى آخر برفع أعلام التمديد والشعارات المعارضة والتعليقات الساخرة والتصريحات النارية دون أدنى حراك على أرض الواقع. ويصرح «برهان غليون» بأن الخطاب السياسي العلماني لم يستقر بعد في الثقافة العربية المعاصرة ويستدل على ذلك بخلط المشتغلين بالسياسة وهواتها بين سلطة الدولة وحقوق الفرد والاشتراكية والليبرالية وعلاقة الدين بالدولة ولعله أراد جهل ما نطلق عليه النخب السياسية بتاريخ العقود الاجتماعية التي وضعها «هوبز» و«جون لوك» و«جان جاك روسو».

وعلى نفس الدرب يسير «محمد أركون» مبينا أن الإسلام في إمكانه استيعاب النظام العلماني في ثقافته السياسية وذلك لأنه لا يوجد ما يمنع إدخال النظم الحديثة والقوانين التي تحمي الحريات بكل أشكالها على العقل الجمعي الإسلامي وقد أقره على ذلك عبدالله العروي وخالد زيادة. في حين يقطع «سمير أمين» و« عادل ضاهر» و«مراد وهبة» و«رفعت السعيد» بأن الفصل التام بين الدين والدولة هو الحل للانتقال بالأمة من طور الرجعية والاستبداد إلى طور الحداثة وحرية الفكر وحقوق الإنسان وذلك في ضوء الشراكة المنعقدة بين السلطات السياسية المستبدة ورجالات الدين، ويضيف سيد ياسين[1] أن السياسة القائمة على الديموقراطية والمعنية بحرية الأفراد والحداثة العقلانية وحرية البحث العلمي وحقوق الإنسان في المواطنة

(1) سيد ياسين: يجب تحريم الأحزاب السياسية على أساس ديني، حوار لصحيفة العرب، 14/ 3/ 2014.

والعيـش الأمن بكرامة في الغرب لا يمكن تحققها في الثقافة العربية مادامت هناك أحزاب سياسـية تقوم على أساس ديني. بينما ذهب حسن[1] حنفي إلى علاقـة التجاور وليس الفصل فصرح (الإسـلام دين علـماني في البداية لأنه ليس به رجال دين، علمانيته معطاة من الداخل بوضع إلهي، وليست مكتسبة من الخارج بجهد إنساني).

في حين يؤكد «عبدالسلام الطويل» في تحليلاته الخطاب السياسي العربي أن المشـكلات التي يثيرها النخبة السياسية مفتعلة وقادهم إليها غيبة الوعي السـياسي الـذي لم يتخلص بعد مـن الأوتوقراطية أن تنظيـم المجتمع لا يتم إلا بنـاء علي نمط واحد ووحيد للمعرفـة في حين أن التجربة التاريخية تثبت أن المجتمعـات الإنسـانية قد تم تنظيمهـا بمختلف أنماط المعرفة السـحرية والأسطورية والميتافيزيقية والدينية والعلمية.[2]

ولعـل هذا المنبر الشـاغر لم يضف جديدا عن سـابقه فهـو لا يروج إلا لفلسـفة الصراع وهو يعلـم جيدا أن خصمه أكبر وأعظم مـن إمكاناته ألا وهـو العقل الجمعي المفعـم بالحس الديني والمغيب بـرداءة التعليم والثقافة، والإعلام المتخلف، والمخدرات، وأمراض البطالة والعنوسة.

وهـو أمام ذلك كلـه يتحدث عن الديموقراطيـة الأمريكية التي لا يعلم

(1) حسن حنفي، > التراث والتجديد ح، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولي، 1981 ص 155.

(2) رفعت السعيد: لا مستقبل للشعوب العربية سوي بالديمقراطية والتداول السلمي علي السلطة، حوار في مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي، 7/ 12/ 2003.

عنها شيء سوى ما تنطق به أجهزة الإعلام ولم يحاول ذات يوم إدراك أن السياسة من العلوم العملية التطبيقية التي لا يجوز استيرادها، أما جماعات حقوق الإنسان فهي ليست أكثر من باترينات أو أبواق لمن يريدون تطبيق المدن الفاضلة وعالم المثل على مدينة لوث هوائها برود الحرب ودنس أرضها جحافل الإرهاب وأعيى أبناءها الصراخ والخرس.

أما أحشاء الأمة فتصرخ من عنت هؤلاء الذين يتحدثون عن الحرية والكرامة والعدالة ولم يضعوا حجرا واحدا لبناء منابرها ولم يبذلوا الجهد بإيجاد معارضة عاقلة قويمة أو إصلاح ما فسد أو إيقاظ الوعي الجماهيري حتى أضحى هذا المنبر الشاغر من أعداء الحرية.

من فلس الخطاب إلى سفه المتلقي

لغو ولجاجة بلا منطق وسياقات مبتورة لا أصالة فيها ولا نسق

وهذا شكل آخر من أشكال ثورة الأحشاء، ويبدو في حديث المتفلسفين عن علة ريبة المنابر الفلسفية وسط ذلك الزخم الذي تعانيه مجتمعاتنا العربية من سوء التعليم وانحطاط الأخلاق والأذواق والتفكك الأسري والتقهقر الحضاري والتبعية للأغيار وغيبة الأقلام المدققة في كتابات الباحثين بوجه عام والدراسات الفلسفية بوجه خاص وتشوش الدلالات وخلط المعاني وفقدان الهوية وعدم القدرة على التمييز بين مسئولية الحرية وجموح ومجون الفوضوية وجحد الثابت وعبادة المتغيرات والانتصار للمنفعة وسقوط راية الإصلاح. فيصرح «جيلالي بوبكر» أن ما يعانيه الدرس الفلسفي في العالم العربي يرجع إلى إخفاقه في التخلص من الثنائية التي أعيته ألا وهي

التراث والتجديد أو الأصالة والمعاصرة والأنا والأخر، الأمر الذي حال بينه والانتقال من طور التلقين والحفظ والترجمة والتحقيق إلى طور التأليف والإبداع، فالإبداع الفلسفي ليس مصدره النقل التام (نقل الوافد أو نقل الموروث) لذا يجب الانتقال من النقل إلى الإبداع عن طريق منهج تحليل الخبرات المشتركة والانطلاق من التراث وتحويله إلى طاقة متفجرة تصنع الجديد.[1] ويضيف أن متنفس الحرية هو الذي يتيح للمتفلسفين تفعيل المنهج النقدي ليس في مناقشة النصوص التي تحملها المصنفات فحسب بل في شتى أمور الحياة وقضايا الواقع ويردد معنا[2] أن منطق إما... أو لا ينتج إلا الصراع لأنه وليد عقلية إطاحية راديكالية بينما النهج الفلسفي يقوم على الحوار وانتخاب المقنع من الأفكار والأنساق بل والنظريات أيضا.

أضف إلى ذلك أن ابتضاع النظريات والمصطلحات البراقة أضحى من أقوى المعوقات لانطلاق العقلية العربية صوب الإبداع والتفلسف ويعني ذلك العجز تماما عن تقييم الماضي ونقد الحاضر واستشراف المستقبل ولعل غيبة ما نطلق عليه بنية إستراتيجية للدراسات الفلسفية في العالم العربي قد جعل معظم المنتسبين للدرس الفلسفي أقرب إلى النساخ منهم لأصحاب الأقلام.

(1) جيلالي بوبكر: أزمة الابداع الفلسفي في العالم العربي، موقع الحوار المتمدن، 21/ 5/ 2015.

(2)عصمت نصار: رؤية أوسع، الأهرام العربي، 21/ 1/ 2013. - تجديد الخطاب الفلسفي في مصر وتحديث آلياته، بوابة روز اليوسف 12 أغسطس 2014 - وفي الفلسفة التطبيقية قراءات فاعلة ونقدات واعية، دار الهداية - القاهرة - 2016. -، الإرهاب وتجديد الخطاب الفلسفي المصري المعاصر، مؤمنون بلا حدود، 28 يوليو 2016.

عـلى الرغـم من أخيلة فلاسـفة التشـاؤم من أمثـال (أبو العـلاء المعري والفيلسـوف الإنجليزي مونتاني وباسكال وشـوبنهاور) تطل من بين ستائر السـطور التي وصفنا فيها حال ثقافتنا العربية، فإننا نقول بكل ثقة أن الأمل مـازال حيا قابعا أسـفل صنـدوق باندورا، فعلينـا إخراجه ثانيـة. ولنتذكر حكمة أرنولد توينبي أن مفتاح أبواب التقدم في أيقونة التحدي والاستجابة، فعلينا جميعـا أن نعمل لإعادة بناء منابرنا وتمهيـد الطريق لأمرائها الحقيقيين مـن أبناءنا إذا ما أحسـنا تربيتهم. وسـوف يأتي يوم نتحدث فيـه عن المنابر الشاغلة بالحكماء والعلماء والأحشاء المطمئنة بالعفة والصدق والوعي.